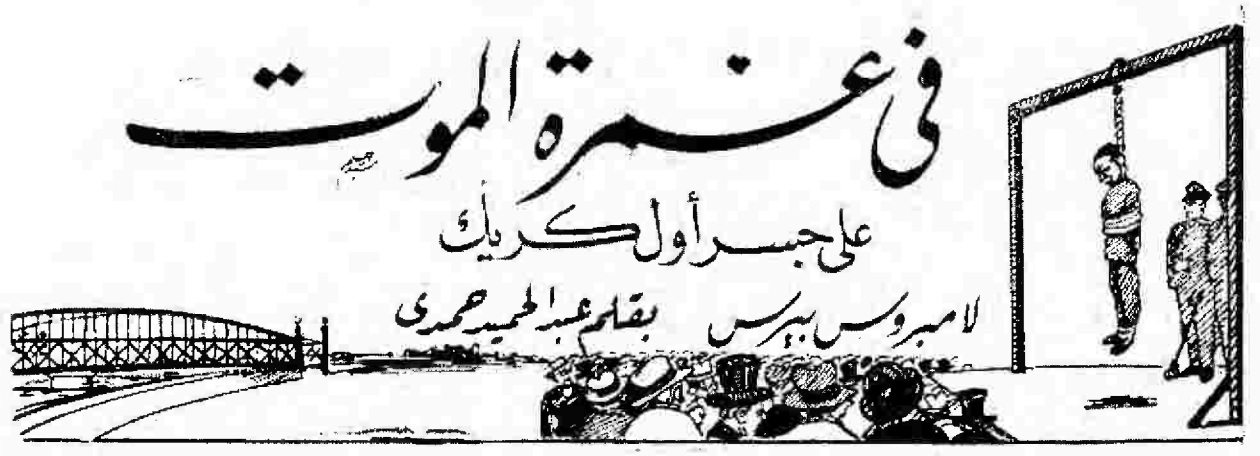

فى غمرة الموت

على جسر أول كريك

لامبروس بيرس بقلم عبد الحميد حمدى

— ١ —

على جسر للطريق الحديدية فى آلاباما الشمالية ، وقف رجل ملوى الساعدين إلى ما وراء ظهره ، مشدود الوثاق عند المعصمين ، وقد أحيط عنقه بحبل مهوى معقود إلى صليب من الخشب المتين فوق رأسه ، وقد تدلت نهاية الحبل إلى مستوى ركبتيه . وكانت عيناه شاخصتين إلى الماء السريع الجريان تحت عشرين قدماً من موقفه

وفوق الكتل الخشبية المرتكزة عليها القضبان الحديدية ، وضعت ألواح من الخشب غير مثبتة أعدت ليقف عليها الرجل وجلادوه ، وهم جنديان من جنود المراسلة فى جيش الاتحاد يقودهما ضابط صف يغلب أنه يعمل فى الحياة المدنية نائب عمدة ، وعلى مسافة قريبة فوق هذه البسطة الموقتة نفسها وقف ضابط مسلح ، فى ملابس الجندية التى تدل على أنه قائد مائة ، وعلى كل من مدخلى الجسر وقف جندى يحمل بندقيته فى وضع عمودى أمام مقدمة الكتف اليسرى ، وقد ارتكزت قاعدتها على الزند الممدود أفقياً على الصدر — وهو وضع رسمى غير طبيعى يرغم الجسم على التصلب فى وقفة متعبة

ولم يكن يبدو من هيئة هذين الحارسين أن من مهمتهما معرفة ما يجرى وسط الجسر ، فقد كان كل عملهما أن يسدا الممر الخشبى المعد لعبور الماشين على الأقدام ، ولم تكن العين لتقع وراء أحد هذين الحارسين على شبح إنسان ، فقد كان الخط الحديدى يتجه مستقيما إلى الغابة مسافة مائة ياردة ثم يلتوى ويختفى عن الأنظار ، وما من شك فى أن كان هناك وراء ذلك لمخفر أمامى ، وفى الضفة الأخرى من النهر فناء مفتوح ، يحيط به سور من جذوع الشجر العمودية ، التى تستعمل المسافات الضيقة بين أحدها والآخر فتحات لاطلاق البنادق من خلالها ، وفى البناء كوة واحدة تبدو منها ماسورة مدفع من النحاس يتحكم فى الجسر ، وفى وسط الطريق بين الحصن والجسر . وقف النظارة الذين سمح لهم بمشاهدة تنفيذ حكم الاعدام — ولم يكن هؤلاء النظارة غير صف واحد من جنود المشاة ، وقفوا موقف الاستعراض ، ارتكزت بنادقهم على الأرض ، ومالت مواسيرها قليلاً إلى الوراء مستندة إلى أكتافهم اليمنى بينما أيديهم مشبكة حول سوق هذه البنادق ، ووقف إلى يمين الصف ضابط برتبة ملازم ارتكز سن سيفه على الأرض ، وقد استندت يده اليسرى إلى اليد اليمنى . وفيما عدا الأربعة الرجال ، القائمين فوق الجسر بمهمة التنفيذ ، لم يكن أحد ليتحرك ، بل وقف الجميع ينظرون إلى الجسر ثابتين كالصخور الجامدة ، أما الحارسان اللذان يواجهان ضفتى النهر ؛ فقد

كانا أشبه بتمثالين يزينان مدخلى الجسر

ووقف الضابط قائد المائة مشبك الساعدين على صدره يرقب فى صمت عمل مساعديه ، والحق أن الموت لذو مقام عظيم ، إذا أقبل ، معلناً عن قدومه ، استقبل بمظاهر الاحترام الرسمية حتى لدى هؤلاء الذين ألفوه ، والسكوت والجمود من مظاهر الاحترام فى القانون العسكرى

وكان الرجل الذى اتخذت هذه الاستعدادات لاعدامه ، لا يتجاوز الخامسة والثلاثين ، فيما يبدو من مظهره ، تدل ملابسه وهى ملابس المزارعين ، على أنه من الرجال المدنيين ، جميل تقاسيم الوجه مستقيم الأنف ، ثابت الفم ، واسع الجبين ، قد سرح شعر رأسه الأسود الطويل إلى الوراء متدلياً خلف أذنيه ، إلى ياقة سترته الحسنة القطع ، ذا شاربين ولحية مدببة ، واسع العينين أسودهما ، فى نظرته رقة يصعب أن يراها الانسان فى عينى الرجل الذى وضع عنقه فى خية الجلاد ، وكان واضحاً أن ذلك الرجل لم يكن من القتلة السفاكين ، على أن قانون العسكرية المطلق كفيل باعدام أى صنف من أصناف الناس دون استثناء للسادة من ذوى الخلق الكريم

وإذ تمت معدات التنفيذ وثب الجنديان المحيطان بالمحكوم عليه عن موقفيهما وسحب كل منهما لوح الخشب الذى كان واقفاً عليه ، والتفت ضابط الصف إلى قائد المائة ، فحياه ووقف وراءه مباشرة . وفى هذه اللحظة ترك الضابط مكانه ووقف على مسافة خطوة من مصطبة الاعدام . وكان من أثر هذه الحركات المتتابعة أن ترك المحكوم عليه وضابط الصف واقفين على طرفى لوح واحد من الخشب ، مركز على ثلاثة من أربطة الجسر الحديدية ، وكان موقف المحكوم عليه قريباً من رباط رابع ولكنه غير متصل به . وكان ثقل قائد المائة الذى حل محله ثقل ضابط الصف هو الحافظ التوازن اللوح الخشبى والحائل دون سقوطه ، فمتى أشار القائد لضابط الصف إشارة التنفيذ ، وتنحى هذا عن موقفه مال اللوح بالمحكوم عليه فيسقط الرجل بين رباطين من أربطة الجسر . وهكذا كانت الاستعدادات التى اتخذت لاعدام الرجل بسيطة فعالة ، ولم يكن وجهه قد غطى ولا عيناه عصبتا . ونظر الرجل لحظة إلى موقفه المزعزع ، ثم شخص ببصره تائهاً إلى الماء المضطرب فى عنف جنونى تحت قدميه ، فاسترعت انتباهه قطعة من الخشب ترقص فوق الماء ، فتبعها نظره وهى تسير مع التيار . فما كان أبطأ حركتها فى تقديره ! ويالله من نهر بليد مكسال !

أغمض الرجل عينيه وحصر تفكيره الأخير فى امرأته وأطفاله ، ولكن الماء الذى ألقت عليه شمس الصباح وشاحها الذهبى ، وأثر الضباب المتبدد فوق الماء على مسافة غير قريبة من موقفه ، والحصن والجنود ، وقطعة الخشب العائمة فوق الماء ؛ كل هذه المرئيات التى وقع عليها نظر الرجل التعيس قد شتت تفكيره ، فلم يستطع حصره كما أراد — على أن عاملاً جديداً للاضطراب قد أضيف الآن إلى هذه العوامل ، فقد شوش تفكيره فى أعزائه صوت لم يستطع تجاهله ولا فهمه ، صوت معدنى ، حاد . واضح ، أشبه بصوت ضربات مطرقة الحداد على السندیان ، فرنة الصوتين واحدة ، ولقد حار فى تعرف مصدر ذلك الصوت ، ولم يستطع أن يتبين إن كان هذا الصوت قريباً منه أو بعيداً عنه — فقد خيل إليه أنه قريب وبعيد فى وقت

واحد . وكان تتابع الدقات منتظما ، ولكنه كان بطيئاً كدقات ناقوس الموت . وكان ينتظر — وهو لا يدرى لماذا — هذه الدقات بصبر فارغ وتنبه شديد . وكانت الفترات بين الدقات بعضها وبعض قد بدأت بالتدريج ، وأصبح تباطؤها مما يسبب الجنون ، فقد اصطحب هذا التباطؤ الشديد بازدياد الضربات قوة وحدة ، فكانت تؤذى أذنيه كما لو كانت وخزات سكين ، ولقد خشى الرجل أن يصيح متوجعاً . ولم تكن هذه الدقات غير دقات ساعته !

وعاد الرجل ففتح عينيه فرأى الماء تحته مرة ثانية . وقال فى نفسه : « لو استطعت أن أخلص يدى من قيدها لكان من اليسور أن أطرح الخية عن عنقى وأن أثب إلى الماء . وعندئذ أستطيع أن أتقى طلقات الرصاص بأن أغطس تحت الماء ، وإذا سبحت بقوة وصلت إلى الشاطئ واندفعت إلى الغابة ثم وصلت سالماً إلى دارى . وأحمد الله ألا يزال بيتى بعيداً عن خطوطهم ، وما زالت امرأتى وصغارى الأعزاء وراء أبعد نقطة وصل إليها العدو الغازى فى تقدمه »

وبينما كانت هذه الأفكار ، التى نصورها هنا كلمات تندفع إلى رأس المحكوم عليه بدل أن تخرج منه ، أشار قائد المائة إلى ضابط الصف ، فوثب الضابط متنحياً عن موقفه

— ٢ —

كان بيتون فاركوهار مزارعاً ميسر الحال من أسرة قديمة لها فى نفوس الناس مكانة سامية من الاحترام . وإذا كان الرجل مالك رقيق ، وكان كثيره من ملاك الرقيق سياسياً ، فقد كان بالطبيعة من طلاب الانفصال الأصليين ومن أشد الناس تحمساً لقضية الجنوب . ولقد حالت ظروف ، لا ضرورة لشرحها هنا ، هى ظروف طبيعية متكررة مستبدة ، دون اشتراكه مع الجيش الباسل الذى حارب المواقع الخطيرة التى انتهت بسقوط كورنث وقد ثارت نفسه لهذا التراجع المعيب ، وتطلع إلى الفرصة التى يستخدم فيها نشاطه فيحقق أعظم ما يطمح إليه الجندى من الصيت الحسن والتميز ، ولقد كان يشعر فى نفسه أن هذه الفرصة ستأتى كما تأتى لكل إنسان فى زمن الحرب ، وفى الوقت نفسه فعل كل ما فى مقدوره أن يفعل . فلم يكن ليأنف من أداء أى عمل بالغة ما بلغت تفاهته لمساعدة الجنوب ، ولم يكن ليتردد أمام أى خطر يمكن أن تنطوى عليه أية مغامرة إذا كانت مما يتفق وخلق الرجل المدنى الذى هو جندى فى قرارة نفسه ، والذى أغرته عقيدته السليمة وقلة مؤهلاته بأن يأخذ ولو بجزء واحد — على الأقل — من التعليم الصارخ الشر القائل بأن كل شىء مباح فى الحب وفى الحرب

وفى ليلة ، بينما كان فاركوهار وزوجه جالسين فوق مقعد ربتى على مقربة من مدخل دارهما ، دنا من الباب جندى من الفرسان فى ملابس رمادية ، وطلب ماء ليشرب . فكان من أشد بواعث السرور إلى نفس السيدة فاركوهار أن تقدم له الماء بيديها البيضاوين . وإذ دخلت إلى الدار لتحضر الماء اقترب زوجها من الفارس الأغبر وسأله فى لهفة عن أخبار ميدان القتال

فأجاب الجندى : الأعداء مشتغلون بإصلاح الطرق الحديدية والاستعداد لتقدم جديد . وقد وصلوا إلى جسر أول كريك ، وأصلحوه ، وبنوا حصناً على الضفة الثانية . وأذاع القائد منشوراً

علق فى كل مكان ، أعلن فيه أن كل مدنى يضبط ، وهو يحاول العبث بالطرق الحديدية أو جسورها أو أنفاقها أو القطارات ، يشنق فى الحال . ولقد رأيت هذا المنشور بنفسى

— وكم هى المسافة من هنا إلى جسر أول كريك ؟

— حوالى ثلاثين ميلا

— ألا توجد قوة على هذه الناحية من النهر ؟

— لا يوجد غير مخفر للبوليس الحربى على مسافة نصف ميل من الجسر إلى جانب الطريق الحديدى ، وحارس واحد عند مدخل الجسر

فقال فاركوهار مبتسما :

— وإذا فرضنا أن رجلا — وليكن مدنياً وطالب شنق — استطاع أن يمرق ، غير ملاحظ ، من مخفر البوليس الحربى وأن يتغلب على الحارس ، فماذا يكون فى مقدوره أن يفعل بعد ذلك ؟

ففكر الجندى قليلا ثم أجاب :

— لقد كنت هناك منذ شهر ، ولاحظت أن فيضان الشتاء الماضى قد حمل كميات كبيرة من الأخشاب فكدسها بجانب الدعامة الخشبية عند نهاية الجسر ، وهذه الأخشاب الآن جافة ويمكن أن تلتهب كالحطب

وهنا وصلت السيدة تحمل الماء ، فشرب الجندى وشكر لها صنيعها فى احترام شديد وانحنى لزوجها ثم انطلق بجواده . وبعد ساعة ، بعد أن هبط الظلام ، عاد مرة أخرى فمر بالمزرعة متجهاً إلى الشمال فى نفس الطريق التى جاء منها فى المرة الأولى

لقد كان الرجل كشافا فى جيش الاتحاد

— ٣ —

عند ما سقط بيتون فاركوهار تحت الكبرى من الفرجة بين الرباطين ، فقد صوابه ، وأصبح كالرجل الذى فارق الحياة ، ولم يوقظه من هذه الحال — بعد أجيال ، على ما خيل إليه — إلا ألم ضغط شديد حول عنقه ، تبعه شعور بالاختناق ، وأحس بآلام حادة شديدة تسرى من عنقه هابطة فى كل عصب من أعصاب جسمه وأطرافه ، وخيل إليه أن هذه الآلام تومض فى خطوط معينة تعييناً دقيقاً متفرعة فى كل ناحية من نواحى هيكله ، وهى تدق دقاً متوالياً فى سرعة لا يدركها العقل ، وكأنها أنهر من النار الخانقة تصعد بحرارته إلى درجة تفوق حد التصور ، أما رأسه فلم يشعر فيه بشىء غير الاحتقان التام ، ولم تكن جميع هذه الاحساسات مصحوبة بشىء من التفكير ، فلقد طمس جانب التفكير من طبيعته طمساً كاملاً ، ولم يبق له غير قوة الشعور ، وكان الشعور مؤلماً مسبباً للعذاب ، كان يشعر بالحركة ، وأحس بأنه مغمور فى سحابة ملتهبة هو قلبها المتقد ، وأخذ يتأرجح وسط دوائر غير مستقرة ، وهو مجرد من القوة المادية التى يستطيع بها أن يملك قياد نفسه ، فهو يتأرجح دون تفكير وبغير إرادته ، أشبه ما يكون برقاص الساعة ، ثم إذا بالضوء المحيط به يندفع إلى أعلى اندفاعا مفاجئاً مرعباً مصحوباً بصوت تخبط الماء تخبطاً مخيفاً مزعج الدوى فى أذنيه ، ثم إذا كل ما يحيط به بارد مظلم ، وعادت إليه قوة التفكير ، فأدرك أن الحبل الذى يحمله فى الهواء قد قطع ، وأنه قد هوى إلى قاع النهر ، وليس فى ذلك ما يسبب له اختناقاً جديداً ، فلقد كانت الحبة حول عنقه

تخنقه فعلا وتحول دون وصول الماء إلى رئتيه ، أيموت فى قاع النهر مخنوقا بحبل ؟ ! لقد بدت له هذه الفكاهة تبعث على الضحك ! ففتح عينيه فى ذلك الظلام الدامس ، ورأى فوقه وميضاً من النور ، ولكنه لم يستطع أن يتعرف المدى بينه وبين هذا الضوء ، ولامبلغ الصعوبات التى تعترض الطريق إليه ! وكان لا يزال يهبط ، فأخذ الضوء يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى أصبح مجرد بصيص ، ثم عاد الضوء ينمو ويزداد وضوحا ، إذن هو يرتفع مرة أخرى إلى سطح الماء — أدرك ذلك كارهاً ، لأنه كان فى مستقره هـذا يشعر بشىء من الراحة والاطمئنان ، وقال فى نفسه : « ليس من المكروه أن يشنق الانسان ثم يغرق ، ولكننى لا أريد أن أضرب بالرصاص ! لا لن أضرب بالرصاص ، فهذا أمر غير محبوب »

لم يكن المشنوق الغريق مدركا أنه يبذل أى جهد فى سبيل الخلاص ، ولكن ألماً حاداً فى معصميه نبهه إلى أنه كان يحاول تحرير يديه من قيدهما ، فالتفت إلى هذا الجهد كما يلتفت البليد إلى حركة المشموذ غير مكترث للنتيجة ، ويالله من مجهود عظيم ! — يالها من قوة هائلة فوق طاقة البشر ! آه . . لقد كان ذلك جهداً بديعاً ! مرحى ! لقد أفلت الحبل معصميه ، وانطلقت ساعداه حرتين تطفوان فوق الماء ، وقد رأى يديه على جانبيه فى شىء من الغموض ، كأنما يراهما من وراء السحب ، وكان الضوء يزداد انتشاراً لحظة بعد أخرى ، ولم يلبث أن اهتم بحركتهما عند ما اندفعت الأولى ، ثم تبعتها الأخرى واثبتين على الحبل الملفوف حول عنقه ، لقد اختطفتا ذلك الحبل وقذفتا به بعيداً فى كثير من العنف ، وقد أشبه تلويه تلوى ثعبان الماء ، فخيل للرجل أنه قد صاح مخاطباً يديه : « أعيداه مكانه ! أعيداه مكانه ! » فقد أعقب نزع الحية عن عنقه ألم مبرح قاس لم يكن قد أحسه بعد ، كان عنقه يتوجع توجعاً مروعا ، وكأنما النار تلتهب فى رأسه ؛ وقلبه ، الذى كان يدق دقاً ضعيفاً ، وثب الآن وثبة كادت تخرجه من فمه ، وفى الجملة دب الألم والوجع الذى لا يطاق فى كل قطعة من جسمه ، ولكن يديه العاصيتين لم تحفلا بأمره ، فقد أخذتا تضربان الماء فى عنف ضربات سريعة الى أسفل ، مرغمتين الجسم بذلك على الصعود وشعر برأسه يبرز من الماء ، ثم غشيت عيناه بضوء الشمس المشرقة ، وتمدد صدره فى حركة تشنجية ، وابتعلت رئتاه فى ألم قتال كمية كبيرة من الهواء لم يلبث أن زفره متوجعاً !

أصبح الرجل الآن مالكا جميع مشاعره الطبيعية . وفى الحق قد سارت جميع حواسه حادة متيقظة لدرجة غير عادية . فالاضطراب المروع الذى أصاب جهازه العضوى قد ضخم هذه المشاعر وأرهفها : حتى أصبحت تدرك أشياء لم تكن من قبل تدركها

فهو يحس وقع قطرات الماء على وجهه ويسمع أصواتها المتفرقة كلما أصابته . ونظر إلى الغابة على ضفة النهر ، فرأى الأشجار شجرة شجرة ، ورأى أوراقها واهتزاز كل ورقة وحدها — ورأى الحشرات تمشى فوق هذه الأوراق ، رأى الجراد ، والفراش البديع الألوان ، والعنكبوت الرمادى يصل غزله من غصن الى غصن ، ورأى الألوان المتماوجة فى قطرات الندى وهى تتساقط على الملايين

من أوراق الحشيش . وسمع طنين البعوض الذى يرقص فوق زوبعة النهر ، كما سمع ضربات أجنحة فرس البحر وهى تصيب سيقان عنكبوت الماء ، مشبهة المقاذيف التى تلطم الماء على جانبى الزورق لتدفعه الى الأمام — وقد تألفت من جميع هذه الأصوات نغمات موسيقية شديدة الوضوح ، ومرقت تحت نظره سمكة فسمع صوت تصادم جسمها مع الماء وهى تشقه على الجانبين

وطفا الرجل على سطح الماء ناظراً إلى النهر أسفل منه ، وفى لحظة أحس بالدنيا التى يقع عليها بصره وهى تدور حوله فى بطء شديد ، وهو نفسه قد أصبح مركز الدائرة ، ورأى الجسر ، والحصن وقائد المائة ، وضابط الصف ، وجندى المراسلة ، تلك المجموعة من الرجال التى أنفذت فيه حكم الاعدام . لقد كانوا كلهم فى نظره أشباحاً سوداء تعترض المدى بينه وبين السماء الزرقاء فصاحوا وحركوا أطرافهم مشيرين إليه ، ولوح القائد بمسدسه ولكنه لم يطلق النار . وكان الآخرون غير مسلحين وكانت حركاتهم سخرية فظيعة ، وكانت أجسامهم كبيرة هائلة

وسمع فجأة صوت طلق نارى ، وعلى مسافة بضع بوصات من رأسه صدم جسم جامد الماء صدمة شديدة أثارت رشاشه على وجهه ، وسمع صوت طلق آخر ، ورأى أحد الحارسين يحمل بندقيته على كتفه وقد انبعث من فوهتها دخان أزرق خفيف ورأى الرجل الطافى فوق الماء عينى الرجل الواقف على الجسر تحدقان فى عينيه من خلال منظار البندقية ولاحظ أن هاتين العينين رماديتان ، فذكر أنه قرأ يوماً أن العيون الرمادية هى أحد العيون نظراً ، وأن الرماة الذائعى الصيت كلهم من ذوى العيون الرمادية ومع ذلك فقد أخطأ هذا الرجل الرماية

وأصابت دوامة معارضة فاركوهار فأدارته ، فاذا هو يواجه ثانية الغابة على ضفة النهر المقابلة للحصن . فسمع من ورائه صوتاً قوياً منغما عملا يخترق الهواء ، ثم أصاب الماء فى عنف وضجة غطت على ما عداه من الأصوات ، حتى صوت قطرات الماء المدوية فى أذنيه ، والرجل وإن لم يكن جنديا فانه قد ألف المسكرات ، فهو يستطيع أن يفهم دلالة هذه الأغنية القوية البطيئة المضخمة . لقد كان الضابط على الشاطئ يشترك فى أعمال الصياح فهو فى جمود وقسوة ، وفى تلحين هادئ يحاول أن يبعث الطمأنينة فى نفوس الرجال ، فكان ينطق بهذه الكلمات فى وضوح وقسوة وفى فترات متزنة :

« تنبهوا . . تجمعوا . . احملوا السلاح . . استعدوا . . صوبوا . . أطلقوا . . »

فغطس فاركوهار فى الماء ، غطس إلى أبعد ما يستطيع أن يغطس . . فكان دوى الماء فى أذنيه كدوى شلال نياجرا . وعلى الرغم من ذلك سمع صوت الطلقات النارية ، فلما صعد ثانية إلى سطح الماء رأى قطعاً من المعدن اللامع تهبط حوله فى بطء وقد انبطحت فى شكل عجيب ، وقد لمس بعضها وجهه ويديه ، ثم استمرت فى هبوطها إلى القاع ، وسكنت إحداها بين ياقته وعنقه ، وكانت حارة كالجمرة فانتزعها وألقى بها بعيداً

فلما طفا فوق سطح الماء متلهفاً إلى استنشاق الهواء ، أدرك أنه قضى فترة طويلة غاطساً ، فقد سار مع التيار شوطاً بعيداً ، فأصبح أقرب إلى السلامة ، وكان الجنود قد انتهوا من إعادة حشو

بنادقهم ، ورأى بريق الكباسات فى ضوء الشمس وقد أخرجت من فوهات البنادق وارتفعت فى الجو ثم وضعت فى فتحاتها ؛ وأطلق الحارسان النار مرة أخرى دون انتظار أمر ضابطهما ، ولكن بلا طائل

رأى الرجل المطارد كل ذلك من وراء كتفه ، وكان فى هذه اللحظة يسبح فى عنف مع التيار ، ولم يكن رأسه أقل نشاطاً من ساعديه ورجليه ، فقد كان يفكر فى سرعة البرق ، وقال لنفسه معقباً على ما رأى :

« لن يكرر الضابط هذه الغلطة مرة أخرى ، فمن السهل أن يتقى الانسان الطلقات الكثيرة إذا أطلقت معاً ، كما يتقى الطلقة الواحدة ، ولعله قد أصدر أمره للجنود أن يطلقوا أحراراً غير مقيدين بأمره ، فليكن الله فى عونى فما أستطيع الافلات منهم جميعاً »

وعلى بعد ياردتين من مكانه سمع صوتاً مرعباً ردد الحصن صداه ، ثم أعقبه انفجار هائل أثار ماء النهر من قاعه ، وارتفعت فى الجو صفحة من الماء ثم سقطت فوقه فأعمته وخنقته ! لقد اشترك المدفع فى المطاردة ، وإذ خلص رأسه من الماء الذى غمره ، سمع صوت القنبلة الثانية تصفر فى الهواء ، وبعد لحظة اصطدمت بأشجار الغابة بعيداً عنه ، وانفجرت بينها ، فقال فى نفسه :

« إنهم لن يفعلوا ذلك مرة أخرى ، وسيطلقون فى المرة المقبلة قنبلة متفجرة ، فلأرقب المدفع بنظرى ، وسيدانى الدخان ، فالصوت يأتى متأخراً لأنه يتلكأ وراء القذيفة ، وهذا المدفع من النوع الجيد »

وفجأة رأى الرجل نفسه يهوى دائراً حول نفسه كالدوامة ، فالماء ، والشاطئان ، والغابة ، والجسر البعيد ، والحصن ، والرجال ؛ كل هؤلاء اختلط بعضهم ببعض ، وقامت بينه وبينهم سحابة كثيفة . ولم يكن يرى الأشياء إلا بألوانها فقط . فهناك خطوط من الألوان المختلفة مستديرة وأفقية هى كل ما يبدو لناظريه . لقد انغمر فى إعصار مائى لفه وأدار كل شىء فى نظره ، فكاد يفقد الصواب وبعد لحظات وجد نفسه وقد طرحه التيار على الرمل فوق قاعدة الضفة اليسرى للنهر — الضفة الجنوبية فى منحنى يخفيه عن أنظار أعدائه . وكان وقوف حركته المفاجئ وجرح يده عند اصطدامها بالرمال ، هما العاملان اللذان أفاقاه وردا إليه الصواب فبكى مروراً ، ودس يده وأصابعه فى الرمل يقبض منه ويهيل على نفسه شاكراً له بصوت عال فضله عليه ، فكانت تلك الرمال فى نظره ذهباً وألماساً وياقوتاً وزمرداً ، وفى الجملة لم يكن يذكر شيئاً نفيساً الا شبه به ذلك الرمل العزيز

وكانت الأشجار فوق الشاطئ أشبه بنباتات عالية فى بستان بديع ، وقد لاحظ أنها منسقة تنسيقاً جميلا يأسر المشاعر ، واستنشق لها عبيراً منعشاً . ورأى من الفتحات بين سوقها ضوءاً ورديا خلاباً ، وكان الهواء يوقع على أغصانها نغمات أشبه بما روت الأساطير من أنغام قيثارة عولس ملك الريح ، ولم يشعر الرجل بالرغبة فى إتمام هربه فقد أخذ بجمال هذا الموضع الساحر وود أن يستقر فيه الى أن يقبضوا عليه من جديد

ولكن أفاقه من هذا الحلم الجميل صفير الرصاص بين الأغصان فوق رأسه . فقد أطلق المدفعى الفاشل عليه قنبلة الوداع . فهم واقفا واندفع صاعداً الى الشاطئ المائل وغاب بين أشجار الغابة الكثيفة

ومشى اليوم كله مهتديا بحركة الشمس . وخيل إليه أن الغابة تمتد الى غير نهاية ، ولم يقع نظره فى أية ناحية من نواحيها على طريق مسلوكة ، حتى ولا درب من دروب قطاع الأخشاب ، ولم يكن يعلم أنه يسكن فى منطقة موحشة كهذه . ولقد كان لهذا الكشف فى نفسه أثر عجيب !

ولم يأت المساء حتى كان التعب قد أخذ منه ، وكانت قدماه قد أنهكهما المسير ، وقد أوشك أن يهلك من الجوع

ولكن التفكير فى امرأته وأطفاله كان حافزاً له على مواصلة التقدم ، ووجد آخر الأمر طريقا ، هى فيما يعلم الطريق التى توجه الاتجاه الصحيح . وكانت طريقا واسعة مستقيمة أشبه بطرقات المدن ولكنها لم تكن مع ذلك مطروقة ، فلا المزارع تكتنفها ولا على مقربة منها يلوح أى أثر للمساكن وحتى لم يسمع بها نباح كلب ينبئ عن وجود إنسان ، وكانت الأشجار الباسقة السوداء تؤلف جدارين مستقيمين على جانبيها ، يلتقيان على مدى النظر فى نقطة فى نهاية الأفق ، ونظر الرجل إلى السماء من خلال هذه الفرجة التى تشق الغابة ، فرأى مجموعة كبيرة من النجوم الذهبية المضيئة ، ولكن منظرها لم يكن مألوفا له ، وكان تجمعها عجيباً ، ولم يكن يشك فى أن هذه النجوم قد رتبت فى نظام معين يحمل فى طياته سراً سيئ الدلالة ، وكانت الغابة من الجانبين تدوى بأصوات غريبة ، سمع بينها أكثر من مرة كلاما بلغة لا يعرفها

وأحس فاركوهار الألم يشتد فى عنقه فرفع يده يتحسس موضع الألم ، فوجد العنق قد غار غوراً مفزعا ، وكان على بينة من أنه محوط بدائرة سوداء من أثر الحبل الذى ضغطه ، وشعر كأن عينيه قد جحظتا فلم يعد فى مقدوره أن يغمضهما ، وجف لسانه من العطش فحاول أن يخفف من حرارته بإبرازه من بين أسنانه فيلق به الهواء البارد . وما أسرع ما غطت الخضرة الطريق غير المسلوكة ببساط لين سميك ! فلم يعد يشعر بصلابة الأرض تحت قدميه !

لقد نام الرجل — على الرغم من تعبه — وهو سار على قدميه ، ما فى ذلك من شك . وإنه ليرى الآن منظراً جديداً — ولعله قد صحا من نوبة أصابته من هول ما لقى . إنه لواقف أمام باب بيته ، وكل شىء تقع عليه عيناه باق كما تركه ، وكل ما يرى وضاء جميل تحت شمس الصباح المشرقة ، فلا جدل فى أنه قد سرى الليل كله . ولقد دفع الباب فانفتح ومشى فى الممر الأبيض الواسع ، فابصر اهتزاز ملابس نسوية على بضع خطوات منه ، وهذه هى امرأته — فى نضارتها وثباتها وجمالها — تهبط درج الشرفة لتستقبله . ولقد وقفت عند قاعدة السلم تنتظر اقباله عليها ، وقد غمرت وجهها ابتسامة تنبىء عن فرحة يعجز القلم عن وصفها ، وهى فى موقفها هذا مثل للعظمة والسمو غير مقارن . آه ما أجملها ! لقد وثب إلى الامام مفتوح الساعدين ، وهو على وشك احتضانها إذا هو يشعر على مؤخر عنقه بضربة صاعقة ؛ وإذا ضوء أبيض يعشى الأبصار يكتنفه من كل ناحية مصحوبا بصورة كصوت المدفع المصمى — ثم إذا كل شىء مظلم ساكن !

لقد مات بيتون فاركوهار ، وهذه جثته مكسورة العنق ، تتأرجح فى الهواء ، فى تؤدة ، من ناحية إلى ناحية ، تحت دعائم جسر أول كريك

عبد الحميد حمدى